على هامش الغفران

للأستاذ كامل كيلانى

[مقدمة كتاب « على هامش الغفران » الذى يصدر فى أول سبتمبر بمناسبة العيد الألفى لأبى العلاء المعرى]

تمهيد

١ — شجر الحور

صوّر فيلسوفنا « أبو العلاء » فيما صور من روائع أخيلته فى « رسالة الغفران » ما لقيه صاحبه فى موقف الحشر — قبل أن يؤذن له بدخول الفردوس — وما كابده يومئذ من شدائد وأهوال ، يتضاءل بالقياس إليها كل ما قاساه فى حياته الأدبية من عناء البحث والدرس . ثم صور ما نعم به — بعد ذلك — فى رحاب الفراديس من أطايب ولذائذ مرتقيات ، يتضاءل — بالقياس إليها — كل ما يبهج الأديب فى أفقه الفكرى من متع عقلية ، ومعان فلسفية ، وصور بيانية . ثم تمثل فيلسوفنا صاحبه وقد رافقه فى دار الخلد ملك كريم ، فجعل يريه من رياض الجنة عجائب ، لا يعرف كنهها إلا الله سبحانه . وثمة قال الملك :

« خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ، فإن هذا الشجر يعرف بشجر الحور »

فيأخذ سفرجلة ، أو رمانة ، أو تفاحة — أو ما شاء الله من الثمار — فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، تبرق — لحسنها — حوريات الجنان »

٢ — قارىء الغفران

ثم التفت فيلسوفنا إلى قارىء رسالته ، وقد خشى أن تحول غرابة بعض ألفاظها بينه وبين دخول فردوسه الأدبى البهيج واجتناء ثمار جنته الفكرية ، فقال :

وإنما أفرق (أفزع) من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع ، ليس — إلى الفهم — بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة (يستبهم معناها ويستغلق فلا يتبينه) فيظل معها فى مثل القيد ، لا يقدر على العجل (السرعة) ولا الرُّوَيد (المهل)

٣ — ترجمة النصوص

وما أجدرنا أن نستشعر — من الإشفاق والحذر — أضعاف ما شعر به فيلسوفنا — قبل مئين عشر من السنين . وأن نزيد ، إلى شرحه — أضعاف ما أثبته ، وأن نترجم نصوصه إلى الأسلوب العصرى ، وأن نصنع بها صنيعنا فى أجزاء « حديقة أبى العلاء » و « رسالة الهناء » ، حتى لا يضجر شبابنا الذكى بما يعترض طريقه إلى هذه الجنات الفكرية — بين خطوة وخطوة — من صخور وهضاب ومتاعب وصعاب ، إن كانت تؤمن معها المثرات ، فلا مرية أنها — على الأقل — معوقات

٤ — فى صحبة المعرى

ولا أكتم القارئ أنى — كلما امتدت بى صحبة هذا الفيلسوف الموهوب ، ورأيت إقبال الخاصة على أدبه الصادق وخياله الأصيل — وجدت لذلك فى نفسى غبطة لا يعدلها إلا غبطتى بما أكن من حب وتقدير لهذه الشخصية العالية الفذة التى تفتن الباحث بما انفردت به من الخصائص والمزايا ؛ فيؤثرها على غيرها من الشخصيات — فى عالم الفكر والبيان — ولا تلبث عبقريتها أن تملك عليه من مذاهب التفكير والإعجاب قدر ما ملكت آثارها الزائعة من مذاهب الجودة والإبداع .

٥ — تبسيط الآثار العلائية

وإنه ليطيب لى أن يكون فى موالاة الحديث عن « أبى العلاء » تجلية لما بقى فى أيدينا من روائعه بين قراء العربية ، وإذاعة لخصائص ذلك الفكر النفاذ بألمعيته إلى سرائر الكون ودقائق الحياة ، المؤيد بقدرة ساحرة على التصور والتصوير ، وتملك شامل لناحية اللغة فى الإبانة والتعبير .

ولست أشك فى أن تبسيط هذه الكتب العلائية ، وترجمة جمهورها إلى الأساليب العصرية ، سيخلق من المتأدبين أشياعاً جددا لأبى العلاء ، ومريدين عارفين بدقائق مراميه ، وغوامض أهدافه ومعانيه ، ونصراء لأدبه الرفيع ، وصحابة يؤمنون بفنه العالى ، فلا يلبث صاحب « الغفران » و « اللزوميات » ،

و « الفصول والغايات » أن تزف إليه مكانة الصدر التي يتفرد بها بين قادة الفكر العربي غير منازع

٦ — جزاء العاملين

وقد تضافرت الحوافز المسددة ، والجهود الموفقة الرشيدة ، على استثارة هذا الكنز العالي الذي كان مغيباً في ظلمات الأيام ، وكان هذا دليل اليقظة الأدبية الصادقة في هذا العصر ، كما أسلفنا القول — منذ عشرين عاماً أو تزيد — في مقدمة اللزوميات ، كما كان هذا التقدير خير جزاء للعاملين

٧ — تعريف وأستاذ

لقد كان من دواعي السعادة التي ظفرنا بها في مستهل حياتنا الفكرية ، أن شببنا ونحن شديدو الولوع بهذا الأديب الموهوب ، وما زلنا مأخوذين بما نظم ونثر ، نديم التفكير في فلسفته العالية التي تنبع من قريحة صافية ، مفتونين بنظراته التي تمدها بصيرة كأنما أودعها الله حرارة كوكب آلق لا يفتأ يشع ، حرصاء على استنفاد الوسع في تقصي بدائعه . فكان « أبو العلاء » لنا — منذ نشأتنا الأدبية — صديقاً بل أستاذاً لا نزيم مجلسه ، ولا نمل حديثه ، فما نزال نبدي في روائعه ونعيد ، حتى لقد أفقدتنا تلك الروائع كراهة الحديث المعاد .

والحق أن الاستماع إلى البيان الساحر كالنظر إلى الجمال الساحر ، كلاهما أخاذ يستولي على نفس الرائي والسامع جميعاً ، متجدد الفتنة أمام أعينهما أبداً ، كأنما عناه « ابن الرومي » حين قال :

« ليت شعري إذا أعاد إليها
كرة الطرف مبدئ ومعيد
أهي شيء لا تسأم العين منه
أم لها — كل ساعة — تجديد
بل هي العيش لا يزال — متى استه
رض — يملي غرائباً ويفيد »

٨ — سحر البيان

ولولا هذا السحر الذي غمر نفوسنا من الأدب العربي ، وذلك الولاء الذي طوينا عليه جنوبنا للفن العالي ، لما تيسر لنا أن نظفر بتذليل ما لقيناه من المصاعب في تحقيق النصوص الكاملة لرسالتي الهناء والغفران ، وترجمتهما — مع ما ترجمناه من رسائله الأخرى وأشعاره — إلى الأسلوب العصري .

٩ — حوافز وصرفيات

وكان من الحوافز التي زينت لنفوسنا هذه الفكرة التي ترمي إلى تقريب البيان العالي ، من أذهان الجمهور العربي في عصره العتيد ، أننا عنينا — من قبل — بترجمة طائفة من روائع كتاب الغرب وشعرائه ، وكان لما نقلناه من أدب « شكسبير » حظ من الإقبال والتقدير ، بعيد المدى عظيم التأثير ، جدير بعبقرية هذا الشاعر العالمي الكبير

١٠ — ترجمة إنجليزية

ثم يسر الله لنا — من بعد — أن نتعاون مع الأديب الإنجليزي المستشرق . براكنبري على إخراج ترجمة إنجليزية لرسالة الغفران مقتبسة من الطبعة الثالثة ، وترجمة ثانية مقتبسة من « حديقة أبي العلاء » ، وقد ظهرت الأولى ؛ فلقيت من أدباء الغرب ومفكريه ما هي خليقة به من الإعجاب والإطراء . وستتبعها الثانية بعد قريب .

١١ — ورق في أصرافه

وما أحق هذا ، بأن يوحي إلينا أن يكون الأدب العالي قريب الجنى ، عذب المنهل ، لكل وارد عربي ، يسمع بالمعري ، ويعلم مكانته وعبقريته ، ثم تحول الحوائل بينه وبين الاستمتاع بما ترك من روائع الفكر ، وخوالد الأثر ، إذ ألف ذلك العربي أسلوبنا العصري ، وتصعب عليه ما سواه من تليد البيان ، ويوده أن تفتح له الأصداف عن غوالي الدرر ، وتتكشف له الأقنعة عن واضح الغرر